إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السادسة – العدد الحادی والعشرون – ربیع ۱۳۹۵ش/آذار ۲۰۱٦م
صص ۹۲ ـ ٦۳

شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب فی کلام الإمام علی (ع) والرد علیها

علی حاجی خانی*

الملخّص

لایشک أحد أن نهج البلاغة من أعظم الکتب الدینیة بعد القرآن الکریم، ولیست الخطب والرسائل والمواعظ والحکم المتوافرة فیه إلّا نبراساً منهاجاً منیراً یستهدی به البشر ویأخذ منه النور ویهدی به إلی سبیل الرشاد، ذلک لأن ما ورد فیه، المضامین القرآنیة وخلاصة سنن النبی وقد أبان الإمام عن فصاحته وبلاغته بأجمل وأروع ما یمکن أن یقوله البشر. وبمرور الزمن قام الحاقدون والمشککون بطرح بعض الشکوک والشبهات فی مدی أصالته ودقة محتواه. من هذا المنطلق فإن من أهم الشبهات اللفظیة أو الشکلیة الواردة علی نهج البلاغة، هی شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب فی کلام الإمام، کما قال بعض المشککین فی نهج البلاغة إنّ فیه إطناب وتطویل کالقاصعة والأشباح وعهد مالک الأشتر؛ بید أن هذا لم یکن مألوفاً من قبل ولم یعهد إلیه. ففی هذا المقال یتناول الباحث هذه الشبهة ویسعی إلی الرد علیها وفقاً للمنهج الوصفی التحلیلی، مشیرا إلی کثیر من الخطب الطویلة التی سبقت عهد الإمام وأنه هو الذی کان یحدد مدی الإطناب أو الإیجاز فی الخطب وفقاً للمرسِل أو المخاطَب أو الأمکنة التی تُلقی فیها؛ کما أن الطول والقصر لیس معیاراً مناسباً لتحدید مصداقیة الخطب، بل الأثر الذی یترکه علی المتلقی هو ما ینبنی علیه إلقاء الخطب، وفیما یخص عهد مالک والإطناب فیه، توصل الباحث إلی أن شخصیة مالک والمتلقی الخاص ما کان یقتضی الإطناب فی العهد، بل المتلقی العام لهذا العهد والظروف الحاکمة علی فحوی النص، هو السبب الرئیسی فی الإطناب والإسهاب فیه.

الکلمات الدلیلیة: نهج البلاغة، الشبهة، الحجم، الإسهاب، الإمام علی (ع).

---

*. أستاذ مساعد فی اللغة العربیة وآدابها بجامعة تربیت مدرس، طهران، إیران
ali.hajikhani@modares.ac.ir

تاریخ الوصول: ۱۳۹٤/۸/۲۷ش تاریخ القبول: ۱۳۹۵/۱/۲۹ش

١- المقدمة

إن نهج البلاغة سفر متميز لا كسائر الأسفار، لأنه انطباعات إمام كبير من أئمة الإسلام، شهد أحداثه الكبرى، فكان نهجه بحق مذكرات ذاتية، وانطباعات إبداعية لهذا الإمام الكبير الذى أسهم فى هذا الصراع المرير بين الخير والشرّ، ومن خلال هذا التعبير الإنسانى من الجاهلية الجهلاء إلى العقيدة السمحة الغراء، وهكذا سما أتباع الدين الجديد سمواً إنسانياً، فكانت رسالتهم إلى العالم كله والناس أجمعين. (باشا، ١٩٩٣م: ١٢٢-١٢٣) فإن هذا الكتاب ملىء بالمعلومات النافعة والمجدية عن المبدأ والمعاد وما بينهما وهو كتاب شامل لأصول الدين وفروعه، وفيه ما يكفى المهتدى والسائر فى سبيل الرشاد وما يتعظ به المتلقى من نصائح وخطابات تعليمية ومواعظ حسنة تفيد له بالخير والبركات ويساعده فى إسعاد نفسه أو إهلاكه، لما يسير به فى عوالم مختلفة من دار البوار إلى دار القرار وعالم القبر والبرزخ ومجالات متنوعة أخرى وذلک من خلال خطبه ورسائله وكلماته القصار، «فإذا كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، هو ذلک التجسيد الحى، والنموذج الألفذّ للإنسان الكامل فى إنسانيته، الذى أراد الله له أن يكون منار السالكين، ومدرسة الأجيال، وقدوة الأمم، فإن نهج البلاغة هو الكتاب الغنى عن التعريف والتوصيف، بعد أن كان دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق ولقد كان وسيبقى على مرّ العصور نوراً تشرق به دروب العارفين وبصيرة وهدى للمستبصرين.» (المشكينى، ١٩٨٤م: ٥)

قد اختار الشريف الرضى نهج البلاغة من كتب ومصنفات ومصادر شتى تتوزع على الأدب والتاريخ والحديث وكتب الأخلاق والعرفان وهى مصادر مشهورة ومعتمدة عند أهل العلم وأرباب المعرفة والتحقيق وأكثرها قبل أن يولد الشريف الرضى بمئات السنين، وقد حفظها. (الشامى، ٢٠٠٨م: ٢٠) وكتاب النهج جدير بأن يكون من أجلّ المصادر وأعلاها وأوثقها، ولا يحتاج بعد إلى مصدر أو مرجع يوثّقه، شأنه فى ذلک شأن سائر ما يرويه المحدثون الثقات، فيؤخذ بمروياتهم من دون تشكيک، ولا مطالبة بمصدر، على أنه جاء جلّه مروياً بالأسانيد فى مصادر أخر سابقة أو معاصرة لجامع النص. (الشريفى، ٢٠٠٥م: ١٥٠) ولنهج البلاغة فى عالم العلم والأدب موقع مرموق

وهو سبب شدة اعتناء الأدباء والمستشرقين بهذا الأثر النفيس الذى جمع فأوعى من ضروب البلاغة وأساليب الفصاحة ومحاسن الكلام المصاغ أحسن صياغة، وكيف لا يكون هذا الكتاب خاصا لأشتات المحاسن، وقد اختاره السيد الشريف الرضى وهو المعروف بحسن الاختيار والابتكار من كلام أميرالمؤمنين أحكم الحكماء وأبلغ البلغاء، أما كون نهج البلاغة مطابقاً لاسمه فقد أصبح غنياً عن الاستدلال، لأنه قد أقرّ المخالف والمؤالف بأنه أبلغ كلام بعد القرآن الكريم والحديث الشريف، أما مناهجه وأساليبه فهى من أعجب ما نسخ عليها كاتب فمن وصف الله وتمجيده إلى وصف أهل البيت عليهم السلام إلى وصف حالة مع مناظريه إلى ذكر الزهد والورع إلى، وقلما نجد شاعراً له نظرة فى الحياة أو قول فى الحكمة أو شغف فى لفظ رصين إلا وجدت شعره يتفيّأ ظلال نهج البلاغة، لما له من الحكم التى تأخذ بجامع القلب، فهو عظيم المناقب، جمّ الفضائل، ومن أبرز ما يتميّز به النهج هو وضوح الأسلوب وحسن المقصد وجزالة الكلمات والمعنى المحدد الذى لا يحتمل معنى آخر. (الطعمة، ١٩٧٧م: ٧٢١) إذن يعتبر النهج من أعظم الكتب الإسلامية شأناً وأجلّها منزلة، حيث اهتم به باحثو الأدب العربى ورجال الدين فى مختلف العصور.

٢- خلفية البحث

هناک دراسات كثيرة سبقت هذا المقال، منها الكتب والمقالات والرسائل والأطاريح الجامعية. فمن أهم الكتب التى تناولت نهج البلاغة وناقشه "بلاغة الإمام على" لأحمد محمد الحوفى، حيث تناول الباحث بيئة الإمام الخطابية والكتابية وروافد البلاغة، ثم توثيق النهج من حيث اليقين بصحته والرفض له والشک فى بعضه والدعاوى والمناقشة، ثم بلاغة نهج وخصائصه النحوية من العاطفة والخيال والأفكار والتعبير. و"أصالة نهج البلاغة من منظور الدراسة الموضوعية الأسلوبية" لعلى حاجى خانى حيث تناول المؤلف الأسلوب ومدارس الأسلوبية واتجاهاتها، ثم تطرق إلى الشريف الرضى وأسلوبه فى نهج البلاغة ومن سبقوه فى ثم قضية الانتحال فى نهج البلاغة والردّ عليها دراسة موضوعية أسلوبية والردود على بدايات التشكيک فى نهج البلاغة والتشكيک

فى نسبة أجزاء من نهج البلاغة إلى الإمام على (ع) عند المتأخرين والردود عليهم ثم الشبهات الشكلية والمعنوية والردود عليها دراسة موضوعية أسلوبية واستنتج أن دوافع الشريف الرضى فى جمع نهج البلاغة هى من العوامل المهمة التى تجعل كل باحث يقتنع بعدم إمكانية الانتحال فى نهج البلاغة وعن موضوع السجع وتنميق الكلام فى النهج، حاول الباحث أن يثبت أن السجع من المحسنات التى كثر ورودها فى النصوص التى سبقت ظهور الإسلام ووردت فى الأحاديث النبوية وخطب الخلفاء الراشدين قبل الإمام على، كما أن دقة الوصف وغرابة التصوير تعدّ مما يميز كلام الإمام من الناحية الأسلوبية. ومن أهم المقالات: "أساليب ابن أبى الحديد فى إثبات أصالة نهج البلاغة" للباحث مجيد معارف، حيث استعرض الباحث شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة وجهوده فى التعبير عن ميزات كلام على (ع) على كلام سائر الخطباء بأسلوب التناول الإيجابى لأصل نهج البلاغة والذى يشمل ذكر المحاسن الأدبية والمعنوية والتعرف على المصادر والمجالات وسبب إصدار الخطب والرسائل واستدراك الكلام فى شرحه والنفوذ والتأثر من كلمات على (ع)، والمقارنة الفنية بين خطب نهج البلاغة وكلام الخطباء المشهورين. ومقالة "فى الدفاع عن نهج البلاغة والردّ على شبهات الدكتور شوقى ضيف"، للباحث تورج زينى وند وهى المنشورة فى مجلة العلوم الإنسانية، ع ١٧، ١٤٣١ق، حيث حاول الباحث أن يدخل فى صميم آراء ضيف ليرسم تصويراً واضحاً من حقيقة نهج البلاغة وآرائه وأن الطريق الذى سلكه فى ضوء المنهج الديكارتى المعروف، يمتاز بالشك والتناقض والحيرة والتشاؤم وسوء الظنّ والخصومة والعصبية بلاحجج معتمدة. واستنتج الباحث أن شبهات ضيف صدرت منه بدافع العصبية العمياء والجهل المتراكم فى تعريف نهج البلاغة ومقالة "دعوات وشبهات أثارها البعض حول نهج البلاغة"، لعبدالرسول الغفارى، وهى المنشورة فى مجلة تراثنا، ع ٣-٤، ١٤٢٨ق، حيث تناول الباحث الموضوعات المهمة فى النهج وهى النبوة والأنبياء والشرائع السابقة ثم نبوة خاتم الرسول محمد مع بيان ما فى القرآن الكريم من الأوامر والإرشادات والنظم التى رسمها الله سبحانه للبشر وعن دواعى كتابته للمقال، هو ردّ تلك الشبهات التى جاءت مكررة على ألسنة عدة من الكتاب، ثم كشف اللثام عن الحقائق التى

انطوت عليها الخطبة الشقشقية والأدوار السياسية التى مرّ بها المسلمون بعد رحيل النبى الأعظم. ومقالة "نهج البلاغة: جمعه، مصادره، مناقشة التشكيک فى نسبته إلى إمام على"، لعبدالهادى الشريفى، وهى المطبوعة فى فصلية المنهاج، ع ٣٦، ٢٠٠٥م، حيث قام الباحث بطريقة الرضى فى الجمع، وهو جمع ما تفرّق من كلام الإمام من مصادره الموثوقة ودوّنه فى أوراق متفرقة ليستدرک ما يشذّ عنه مستقبلاً، ثم عمد إلى اختيار محاسن كلامه، وأن جميع ما ضمّه النهج أخذ الرضى من المصادر التى سبقته زماناً، أو التى عاصرته، ولمّا كانت مهمة الرضى محصورة بالجمع مع التمحيص والتحقيق والانتفاء لضبط مادة النهج، لإبراز بلاغة الإمام وفصاحته، فإنه لم يراعِ فى ما اختاره التنسيق والتتالى، أمّا قضية كثرة الخطب، فإنها كانت قياساً إلى كثرة الدواعى والأغراض، وتراكم الأحداث والظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية والأخلاقية قليلة، لأن جميع هذه الأمور تحتاج إلى كلام كثير هو أضعاف ما ورد فى النهج من الخطب.

إن الدراسات السابقة التى حاولت الردّ على الشبهات المطروحة عالجت الموضوع فى الغالب من وجهة معيّنة مُغفلةً بذلک بقية الجوانب.منها الأدلة العقلية والتاريخية والمناهج الأسلوبية والاساليب المقارنة، فحاولت هذه الدراسة أن تكون متعددة الاتجاهات مع التركيز على الأسلوبية أساساً للعمل. فقد ظهر أن المصادر المذكورة لم تختص بمآخذ على نهج البلاغة حول حجمه والإسهاب فى كلام الإمام على والشبهات اللفظية الواردة حولها ولم تتوسع فيها، وهذا المقال فريد من نوعه وأولى خطوة فى هذا المجال.

٣- مآخذ على نهج البلاغة والشبهات الموجهة إليه

مما لا شّک فيه أن للشريف الرضى الفضل كلّ الفضل فى البدء بجمع كلام الإمام وصونه من الضياع والفقد، وذلک نظراً لأهميته واتصاله الفعال بالأحداث الكبرى فى حياة العرب والمسلمين، ولاسيما هذه الأحداث التى شلت الكلمة وفرّقت الإخوة، وكان لكلام الإمام الأثر الكبير فى جمع القلوب وتوحيد المشاعر، وقد تجلى ذلک كله فى هذه الومضات الإنسانية، والإضاءات البيانية، والإبداعات الفكرية، وذلک بالاعتماد

على ما فى القرآن من شرائع وأحكام وما فيه من عظات وآيات، فلقد انعكس ذلک كله فى أقواله وأعماله. (باشا، ١٩٩٣م: ١٠٨)

أما عنـد الرجوع إلى الكتـب التاريخية فيظهر أن مبدأ التشـكيک فى نهج البلاغة يعود إلى القرن السـابع الهجرى، وأول من بذر بذرة التشـكيک فى نهج البلاغة ومدى صحة نسـبته إلى الإمام على (ع) هو ابن خلكان المتوفى سـنة (٦٨١ق) حين يقول فى كتابـه المعروف بوفيات الأعيان عند ترجمته للشـريف المرتضى: «قد اختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام على [ع]. وإنما الذى جمعه ونسـبه إليه هـو الذى وضعه والله أعلم.» (ابـن خلكان، لاتا، ج٣: ٣١٣) وقد ورد هذا الكلام عند صلاح الدين الصفدى المتوفى سـنة ٧٦٤ق فى الوافى بالوفيات (الصفدى، لاتا، ج١: ٧) وعفى الدين اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨ق فى مرآة الجنان (اليافعى، لاتا، ج٣: ٥٥) وابن عماد الحنبلى المتوفى سـنة ١٠٨٩ق فى شـذرات الذهب فى أخبارمن ذهب. (الحنبلى، لاتـا، ج٣: ٢٥٧) واتهـم شمس الدين الذهبى المتوفى سـنة ٧٤٨ق فى ميزان الاعتدال الشـريف المرتضى بوضع نهـج البلاغة، قائلاً: «وهو (الشـريف المرتضى) المتهم بوضع كتاب نهج‌البلاغة وله مشـاركة قوية فى العلوم، ومن طالـع كتابه نهج البلاغة جزم بأنّه مكـذوب على أمير‌المؤمنين على رضى الله عنه.» (الذهبى، لاتا، ج٣: ١٢٤) ويكرر ابن حجر العسـقلانى المتوفى سنة٨٥٢ق فى لسان الميزان ما قاله الذهبى. (العسقلانى، لاتا، ج٤: ٢٥٦)

ثم جـاء المعاصرون فاقتفوا آثار من سـبقهم حيث شـكّكوا فى نسـبة نهج البلاغة إلـى الإمام على (الغفـارى، ١٤٢٨ق: ٣٠-٣١) ومنهم الذين تأثروا برأى ابن خلكان وتابعـوه هو جرجى زيدان حيث قـال إن الإمام علياً(ع) قدجُمعت خطبه فى كتاب نهج البلاغة، جمعها الشـريف المرتضى المتوفى سـنة٤٣٦ق. (زيدان، ١٩١٤م: ٣٣٣) كما أنّ شوقى ضيف يكرّر ما قاله ابن خلكان حين يتحدث عن الخطب فى صدر الإسلام قائلاً: وقد أثرت عنه (عن الإمام على) خطب كثيرة، ولا نقصد الخطب التى يحتويها بين دفتيه كتاب (نهج البلاغة) فأكثره مصنوع ومحمول عليه، وقد أشـار إلى ذلک كثير من العلماء

(ضیف: ٦١)؛ ویعترف فی مکان آخر بعدأن یذکر آراء المتقدمین بأن الکتاب من عمل الشریف الرضی وصنعه، ومع ذلک یری بأن الشریف الرضی لم یؤلفه جمیعاً حین یقول: «فقد أضاف قبله کثیرٌ من أرباب الهوی وفصحاء الشیعة خطباً وأقوالاً إلی علی بن أبی طالب[ع].» (المصدر نفسه: ٦٢٠)

کذلک یکتفی أحمد أمین فی کتابه "فجر الإسلام" حینما یتحدث عن نهج البلاغة ونسبته إلی الإمام علی (ع) بذکر آراء الناقدین القدماء ویکرّر تشکیکهم فی مجموع ما حوی هذا الکتاب دون أن یأتی بحجة مقنعةٍ (الأمین، ١٩٦٩م: ١٤٨-١٤٩)، وکذلک خیر الدین الزرکلی فی کتابه (الأعلام) عند ذکره ترجمة الشریف المرتضی یکرّر آراء بعض القدماء ویذکر نفس العبارات التی جاء بها شمس الدین الذهبی دون أن یأتی بشیء جدید أو استدلال وافٍ. (الزرکلی، ١٩٨٩م: ٢٧٨) لا یعدّ کارل بروکلمان فی کتابه (تاریخ الأدب العربی) عند ذکره تآلیف الشریف الرضی نهج البلاغة من آثاره، بل یؤکد بأن الصحیح هو أن جامعه هو أخوه الشریف المرتضی (بروکلمان: ٦٤) دون إیراد دلیل تاریخی أو علمیّ.

٣-١- أنواع الشبهات

بالمداقّة فی نوعیة الشبهات، فیمکننا أن نقسمها إلی أربعة أقسام، وهی :

الف- الشبهات التوثیقیة (الإسنادیة)

یمکن إجمال أهم الشبهات التوثیقیة، فیما یلی: عدم الإتیان بالمصادر والأسانید، إن الشریف الرضی لم یذکر فی صدر کتابه المصادر التی رجع إلیها، أو الشیوخ الذین نقل عنهم. (إبراهیم السید، ١٩٨٦م: ٢٨) وخلّو الکتب الأدبیة والتاریخیة التی ظهرت قبل الشریف الرضی من کثیر مما فی نهج البلاغة، حیث أن الکتب الأدبیة والتاریخیة التی ظهرت قبل الشریف الرضی تخلو من کثیر مما فی نهج البلاغة (زکی صفوت، ١٩٣٢م: ١٢٢)، والمشترکات فی نهج البلاغة، وهو أن بعض ما روی عن علی[ع] فی نهج البلاغة روی عن غیره فی غیره، کقوله: کان لی فیما مضی أخ عظّمه فی عینی صِغَرُ الدنیا فی عینه.

وهذا مروى عن ابن المقفع، وكقوله: الدنيا دار مجاز... يروى لسحبان وائل (الحسينى الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٤)، والإضافات فى نهج البلاغة، وهى أن الشريف الرضى رحمه الله بعد فراغه من جمع نهج البلاغة ترك أوراقا من البياض فى آخر كلّ باب من أبوابه الثلاثة لاقتناص الشارد، واستلحاق الوارد، فهل بقى نهج البلاغة على وضعه أم تعرض للزيادات والإضافات كما زعم بعض المشككين؟ (المصدر نفسه: ١٨٦)

ب- الشبهات المذهبية

يمكن إجمال أهم الشبهات المذهبية فيما يلى: التعريض بالصحابة وهو أنّ فى الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله (ص) ما لايُسلَّم أن يصحّ صدوره عن مثل الإمام على[ع]. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٠) ومظاهر التشيع المذهبى والتعصب الشيعى، وهو أن ما فى الكتاب من خطب كثيرة ورسائل متعددة قد اختلقه الشريف الرضى لأغراض مذهبية شيعية (بلبع، ١٩٤٥م: ٩٢) وأن التشيع رُبّما قد زيّن له قبول هذا النتاج الوفير، وتدوينه دون تمحيص، وقد سرّه أن ينسب لجده الإمام[ع] هذا الميراث الضخم من عيون الآثار والحكمة، مع أنه لو نظر لتردد، وللكشف أن بعضاً مما أضيف إلى أميرالمؤمنين[ع] لايشرّفه أن ينسب إليه، ولا يزيد فى قدره أن يكون من قوله. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٨) وذكر الوصى والوصاية وهو ما فى نهج البلاغة من ذكر الوصى والوصاية. (الحسينى الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٢)

ج- الشبهات الشكلية (اللفظية)

يمكن إجمال أهم الشبهات الشكلية (اللفظية) فيما يلى: السجع وتنميق الكلام، وما فيه من السجع والتنميق اللفظى، وآثار الصنعة لم يعهده عصر الإمام[ع] ولا عرفه، وإنما ذلك طرأ على العربية بعد العصر الجاهلى وصدر الإسلام وافتتن به أدباء العصر العباسى، والشريف الرضى جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم. (المصدر نفسه: ١١٢) ودقة الوصف وغرابة التصوير، حيث أن فى نهج البلاغة من دقة الوصف وغرابة التصوير مالم يكن معروفاً فى آثار الصدر الأول الإسلامى كما

تــراه فى وصف الخفاش والطاووس، والنملــة والجرادة، وكل ذلک لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول، ولا أدباؤه ولا شعراؤه وإنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان والفرس الأدبية (المصدر نفسه) والألفاظ الاصطلاحية الحِكْمية والمنطقية، وهو أن فى نهج البلاغة بعض الألفاظ الاصطلاحية التى عُرفت فى علوم الحكمة من بعد كالأين والكيف ونحوهما ورود بعض الألفاظ التى دُسّــت فيما نقله عن المتكلمــين وأصحاب المقولات، من نحو قولهم: (المحسوسات) و(الكل والبعض) وقولهم: الصفات الذاتية والجسمانيات (المصدر نفسه). وحجم نهج البلاغة والتطويل فى كلام الإمام (ع)، حيث قال بعض المشككين فى نهج‌البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام(ع) تتســع لأن يقوله ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكّنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين ســبقوه مجتمعاً نصفَ كلام الإمــام(ع). (الحــوفى، ١٩٧٧م: ٤٢) وتكرار المقاطع الطويلة والقصــيرة، حيث أنّ فى خطب نهج‌البلاغة مقاطــع طويلة وقصيرة تُروى على وجهين مختلفين يتفقان فى المعنى، ولكن يختلفان فى اللفظ. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٧) واستعمال الطريقة العددية والتقاسيم المتوازية، وهو أن فيه استعمال الطريقة العددية فى شــرح المسائل وفى تقسيمات الفضائل والرذائل. وهذا الاستعمال فى الشروح، وتقسيم الفضائــل أو الرذائل على أســلوبها، لا نــراه فى الآداب الجاهلية، بل لا نكاد نعرفه فى الأدب الإسلامى إلا بعد ظهور كتاب كليلة ودمنة المعرّب.

وإذا علمنــا أنّ إدخــال الأعــداد فى الحكمــة الأخلاقية، وفى ترتيــب المجرّدات والمعقولات، له الدور المهم فى المذاهب المتشعبّة عن الطريقة الفيثاغورية أو الأفلاطونية الحديثة، وإذا علمنا أن العرب لم يعرفوا هذه الفلسفة إلا بترجمة كتب اليونان فى العصر العباســى الأول، وإذا علمنا أنّ الشــريف الرضى كان من الحكماء الأجّلاء، والعلماء المعروفين، وأنه عاش فى العصر العباسى الثالث، ساغ لنا هذا الشک. (الجلالى الحسينى، ٢٠٠١م: ٥٤)

د- الشبهات المعنوية (فى المضمون)

يمكن إجمال أهم الشــبهات المعنويــة فيما يلى: ادعاء المعرفــة بالمغيّبات والإخبار

بالغيب، حيث أن فى عبارات الكتاب ما يشم منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب، وهذا أمر يجلّ عن مثله مقام على[ع] ومن كان على شاكلة على[ع] ممن حضر عهد الرسالة، ورأى نـور النبوة. (عبده، لاتا: هـ) والأفكار السـامية والحكـم الدقيقة وظهور الروح الصوفى الفلسـفى، وهو ما ورد فى نهج البلاغة من الأفكار السـامية والحكم الدقيقة ما لايصح نسبتُهُ إلى عصر الإمام(ع) وظهور الروح الصوفى الفلسفى فى كثير من خطبه مما لم يفش فى المسلمين إلا فى القرن الرابع الهجرى، وكذلك أسلوب علم الكلام بما وضع له من مصطلحات بادياً، مما لم يعرف عنه إلا فى العصرالعباسـى، حيث تقدمت هذه العلوم فوُضعت أصولها وفُرّعت فروعها، وهذا يظهر فى بعض خطبه ظهوراً بارزاً كما فى خطبة بدء الخلق. (إبراهيم السـيد، ١٩٨٦م: ٢٤) ومافيه مـن الحث على الزهد وذكر الموت، وهـو ما فى نهج‌البلاغة من الحث على الزهد، وذكر المـوت، وقرض الدنيا على منهاج المسيح(ع). (الحسينى الخطيب، ١٤٠٥ق: ١١٣)

مما لا شک فيه بأنّ تناول الشبهات المذكورة والإجابة عنها يحتاج كلّ منها إلى مقالة على حدة ومستقلة. ففى هذا المجال يتناول الباحث شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب فى كلام الإمام على ويهدف إلى الردّ عليها.

٤- عرض شبهة حجم نهج البلاغة والإسهاب فى كلام الإمام على

قبل أن يتناول الباحث هذه الشبهة ويقوم بعرض تفاصيلها فى النهج، فتجدر الإشارة إلى مدلول الإسـهاب والإطناب ومدى فاعليتهما فى النص. من مزايا اللغة العربية دقة التصـرف فى التعبير، واختلاف الأسـاليب باختلاف المقاصـد والأغراض، فمن العيب الفاضـح عنـد ذوى المعرفة بها (الاطنـاب) إذا لم تكن هناک حاجـة إليه، "والإيجاز والاختصـار" حيث تطلب الزيادة ، وقد تخفى دقائق تراكيبها على الخاصة بل العامة ، فقد أشكل أمرها على بعض ذوى الفطنة من نابتة القرن الثالث: إبان زهو اللغة ونضرة شبابها. (الهاشمى، ١٣٧٩ش: ٦٠) كما أن هناک فرق بين الإطناب والتطويل حيث يقول الرمانى عـن الفرق بينهما «أن الإطناب بلاغة والتطويل عـىّ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنـى المدلول عليه، وليس كذلک التقصير، لأنه لا بدّ فيه من الإخلال. فأما الإطناب

فإنما يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل، فلكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أعظم، فأما التطويل فعيب وعىّ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب، وأما الإطناب فليس كذلك؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحمل فى الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب.» (الرمانى، لاتا: ٨٠-٧٩)

قال بعض المشككين فى نهج البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام(ع) تتسع لأن يقوله ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكّنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعاً نصفَ كلام الإمام(ع) (الحوفى، ١٩٧٧م: ٤٢) وادعوا أيضاً أنّ هناك إطالة الكلام وإشباع القول فى بعض الخطب والكتب كما فى عهد الأشتر النخعى المسهب المطنب المشتمل على كثير من الحيطة والحذر والتوكيدات والمواثيق، فضلا عن أنّ فيه من النظرات السياسية والقواعد العمرانية ما لم يكن معروفا فى عصر الإمام[ع]. (الجلالى الحسينى، ٢٠٠١م: ٥٤) كما يزعم بعض المشكلين أنّ الكلام فى نهج البلاغة يطول إلى حدٍّ لم يؤلَف فى هذا الوقت، كما فى عهد مالك الأشتر النخعى وخطبتى القاصعة والأشباح. قد تحدّث زكى صفوت عن طول عهد الأشتر النخعى، لامن حيث ما ورد فيه من النظريات السياسية والقواعد العمرانية، بل من حيث طوله قائلاً: «وإنما يخالجنا الشك فيه من حيث طوله وإسهابه لاعتبارات نوردها لك:

أ. إن الخلفاء قبله عهدوا إلى ولاتهم فلم يؤثر عنهم ذلك الإسهاب فى عهودهم.

ب. إن الإمام[ع] نفسه ولّى محمد بن أبى بكر الصديق على مصر قبل الأشتر النخعى، وولّى قيس بن سعد بن عُبادة عليها قبل ابن أبى بكر، وولّى غير هؤلاء على الأمصار فلم يعهد إليهم بمثل هذا العهد، بل إنّ عهده لابن أبى بكر عشرة أسطر.

ج. إن مالك بن الحارث الأشتر الذى كتب له ذلك العهد، كان عضد الإمام[ع] وساعده فى صفّين، وكان قائد الميمنة، وقد أُبلى فى الحرب بلاء حسنا، وكان يستحث من همّة الجيش، كلما آنس منهم مللا وسآمة. وفحوى ذلك أنه كان موضع ثقة تامة من

الإمام[ع]، ومن كان كذلک، فليس بحاجة إلى ذلک القدر من الإسهاب فی الحيطة والحذر وتأكيد المواثيق، وكيف يسهب هذا الإسهاب فيكتب له عهداً فی مائتين وخمسة وسبعين سطراً.» (زكی صفوت، ١٩٣٢م: ٢٢٩-٢٣١) هذا ويقول صبری إبراهيم السيد مؤيداً ما مضی آنفاً من الشک: «والمعروف عن علی[ع] التوسط، إن لم يكن الإيجاز، فقد ذكر صاحب النهج عهده إلى الأشتر فی خمس عشرة ورقة، وهذه كمية لم تُعرف ولاشئ منها عن علی[ع] فی عهد من العهود، حتى إلى من لم يكونوا كالأشتر محل ثقته منه فی معرفتهم للأمور وخبرتهم بالأيام واعتقاده ذلک فيهم، وهذا محمد بن أبی بكر الذی يقول فيه للأشتر حين استقدمه ليولّيه مصر مكانه: (وكنت وليّت محمد بن أبی بكر مصر، فخرجتْ عليه بها خوارج، وهو غلام حدث ليس بذی تجربة للحرب ولابمجرِّب للأشياء[١] لم يزد فی عهده إليه حين ولاه مع حاجته إلى المزيد على عشرة سطور، كما رواه الطبری وعلى ورقة ونصفها، كما هو ثابت ببعض زيادات فی النهج ،فكيف يكون عهده إلى الأشتر الذی يعتقد فيه ما يعتقد، ومما ليس معه فی حاجة إلى إيصاء، بالغاً من الطول المَبلَغ الذی ذكرنا.» (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٧)

٤-١- الرد على الشبهة

قبل الرد على هذه الشبهة تجدر الإشارة إلى أن العهد ليس نصا أدبياً جانحاً فی الخيال أو نظرات مثالية مجرّدة لا تمتّ بصلة إلى الواقع، إنما هو منهج وتعاليم وقواعد وأسس واقعية جسدها أمير المؤمنين (ع) فی تجربته السياسية والإدارية المعقدة فی إدارة الدولة وقيادة المجتمع المدنی فی القرن الأل للهجرة من تاريخ الإسلام. (الشامی، ٢٠٠٨م: ٣٩-٤٠) يظهر من الشبهة أن هناک نقطتين لا بد من الفصل بينهما:

الأول: كثرة كلام الإمام (ع)، كما قال بعض المشككين فی نهج البلاغة إن هذا الكلام الوارد فيه كثير لم تكن حياة الإمام(ع) تتسع لأن يقوله، ولم تكن ظروفه السياسية والدينية تُمكّنه من النطق بهذا القول، ولم يبلغ كلام الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مجتمعاً نصفَ كلام الإمام(ع). (الحوفی، ١٩٧٧م: ٤٢)

الثانی: أن الكلام فی نهج البلاغة يطول إلى حد لم يؤلف فی زمن الإمام(ع)، وذلک

١. لم يذكر هذا الكلام للإمام (ع) فی النسخ المشهورة كصبحی الصالح ومحمد عبده.

كما فى عهده للأشتر النخعى لّما ولّاه مصر، فقد بلغ مائتين وستين سطراً، وخطبة الأشباح التى بلغت مائة وعشرين سطراً، والخطبة المسماة بالقاصعة فقد بلغت مائتين واثنى عشر سطراً. (المصدر نفسه) ويضاف إليهما تعذّر الحفظ والضبط فى أمثالها، خاصة وأن الشريف الرضى قد فرغ من جمعه بعد مقتل الإمام على(ع) بزهاء أربعة قرون بالإضافة إلى تعذر وسائل الكتابة وإعواز القرطاس. (إبراهيم السيد، ١٩٨٦م: ٢٨)

لكن فى الردّ على النقطة الأولى، فسهل جداً لأن الإمام(ع) امتاز على سابقيه بمقدرة بيانية لم توهب لهم، وبوراثة بلاغية لم تكن لأحد منهم، وبثقافة أوسع من ثقافتهم، كما امتدّ به العمر، فعاصرهم جميعاً وعاش بعدهم وكانت حياته حافلة بأحداث لم تكن فى حياة أحد منهم، وقد اقتضت هذه الأحداث أن يخطب كثيراً، ويحاور كثيراً ويكتب رسائل كثيرة، كما اقتضت حياته وبخاصة قبل خلافته أن يكون أكثر الخلفاء الراشدين فتاوى، وأكثرهم وعظاً، وأغزَرهم علماً . ثم إنّه تصدى لصراع سياسى ودموى فى فترة خلافته، وهى حوالى خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، بينه وبين طلحة والزبير، بينه وبين الخوارج، بينه وبين معاوية، وبينه وبين كثير من الأفراد والأسر كآل عثمان وآل طلحة وكأخيه عقيل وابن عمه عبد الله بن عباس، هذا كله يقتضى خطابة ويستدعى حواراً ويتطلب رسائل، ويوحى بتجارب وحكم. (الحوفى، ١٩٧٧م: ٤١) إن نظرة عابرة إلى حياة الإمام (ع) باعتباره خطيباً وكاتباً إلى جانب مسؤولياته للمجتمع الإسلامى، تُثبت بأنّ ماحواه نهج البلاغة أقل مما صدر عن الإمام (ع). مما لاشك فيه أن لمحة عن تواريخ حياة الإمام على (ع) تكشف عن السبب فى هذا الحجم الهائل من كلامه والمؤهلات التى تجعله فى المستوى المطلوب، فإن كل حادثة مرّت بحياته تقتضى قولاً فصلاً من رجل مثله كان فى قمّة المسؤولية الملقاة على عاتقه.

ففى سنة ٢٣ قبل الهجرة ولد الإمام على (ع) فى ١٣ رجب، وفى سنة ١٠ قبل الهجرة كان أول من اعتنق الإسلام وآمن بنبوّة رسول الله (ص)، وفى سنة ١ق- بات فى فراش النبى (ص) حفاظاً على حياة الرسول (ص) ليلة الهجرة، وفى سنة ٢ق - تزوّج بسيدة النساء فاطمة بنت رسول الله (ص)، وساهم فى وقعة بدر الكبرى، وفى سنة ٣ ق- ساهم فى معركة أحد، وفى سنة(٤-٦) ق- ساهم فى معركة الخندق وخيبر والحديبية، وفى

سنة ٨ ق- ساهم فى فتح مكة، وأوفده النبى (ص) إلى اليمن، وفى سنة ١١ ق- كانت وفاة النبى (ص)، وواجه أحداث السقيفة، ولم يشارک فيها لأنّه كان مشتغلاً بتشيع النبى (ص) ودفنه، وفى نفس السنة توفيت السيدة فاطمة الزهراء عليها السّلام، وفى سنة(١٣ -٢٣) ق -كان يستشيرهُ عمر فى إدارة المسلمين، وعاش فى سنة ٣٥ق - ثورة المصريين على عثمان وبعد مقتله بويع الإمام على(ع) بالخلافة، وواجه فى سنة ٣٦ ق- وقعة الجمل بالبصرة، وفى سنة ٣٧ ق- وقعة صفّين، وفى سنة ٣٨ ق - حادثة التحكيم ووقعة النهروان، وأخيرا فى سنة ٤٠ ق - اغتيل الإمام(ع) فى مسجد الكوفة فى ١٩ رمضان وهو يؤدّى صلاة الفجر، وتوفى ٢١ رمضان ودفن فى النجف. قد حكم الإمام علىّ (ع) فى خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، فإذا جمعنا خطبه (ع) فى كل جمعة وعيدى الأضحى والفطر، لبلغ (٢٢٤) خطبة، هذا عدا ما باشرها الإمام (ع) من حروب الجمل وصفّين والخوارج، وما يستلزم ذلک من خطب حماسية فى الاستنهاض والدفاع والحرب، فلا غرابة فى المأثور عن شخصية قيادية كعلى بن أبى طالب(ع) الذى قضى ٦٣ عاما مرافقا قضايا الإسلام الكبرى ومساهما فيها مساهمة فعّالة فى ما تقتضيه المصلحة الإسلامية العليا، لما فيه من مؤهلات العلم والتجربة، فلا يُستنكر منه شىء من خطب ورسائل وحكم رويت فى نهج البلاغة. (الجلالى الحسينى، ٢٠٠١م: ٥٢-٥٣)

إضافة إلى، هذا ما يؤيد كثرة كلام الإمام(ع) فى الخطب هو قول المسعودى المورخ الشهير الذى يشير إلى عدد الخطب المحفوظة حين يقول: والذى حفظ الناس من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة ونيف وثمانون خطبة. (المسعودى، لاتا: ٤٥٩) فعلى هذا الأساس، إن مابين أيدينا من الخطب فى نهج البلا غة هو نصف ما ألقى الإمام (ع) ولو أضيفت عليها الرسائل والحكم لثَبُت أنّ ما حوى نهج البلاغة من كلام الإمام (ع)أقل مما صدر عنه (ع).

أما النقطة الثانية وهى أن الكلام فى نهج البلاغة يطول إلى حد لم يؤلف فى زمن الإمام(ع) فيمكن الردّ عليها بالإطناب والمساواة والإيجاز كلها تابعة لما تقتضيه الحال.

٢-٤- معالجة الأسلوب والأسلوبية

يمكن معالجة الأسلوب والأسلوبية بالاتجاهات الثلاثة:

١- من زاوية المخاطِب أو المرسِل

٢- من زاوية المخاطَب أو المرسَل إليه

٣- من زاوية النصّ

من المؤكَّد أن بين هذه العناصر الثلاثة علاقة وثيقة لايمكن تفكيكها، كما لايمكن معالجتها على حدة دون آخر . أما النصّ سواءٌ أكان خطابة أم رسالة فله دور بارز فى الأسلوبية، أما من حيث كميته وحجمه وهو موضوع بحثنا هذا، فمن الممكن أن يكون مطنباً مسهباً، أو أن يكون متوسطاً أو أن يكون موجزاً مختصراً بعيداً عن الإطناب والإسهاب.

ولكنّ الذى يميّز أن يُطنِب فى موضع أو يتوسط فى موضع ثانٍ أو يوجِز فى موضع آخر، هو المخاطِب والمرسِل اللذين يصدر عنهما النصّ ولديهما الحق هذا التمييز، لأنّهما هما اللذان يعرفان المخاطَب والمرسل إليه ومقتضياتهما وحاجاتهما ، والظروف التى يعيش المخاطَب والمرسل إليه فيها، فيمكن أن يحتاج المخاطَب إلى شرح مسألة أو بيان أمر بسبب أهميته فعندئذ يسهب المخاطِب فى هذا الموضع.

فإذن على أساس قواعد الأسلوب والأسلوبية لايمكن النظر إلى النص وإطنابه وإيجازه بغضّ النظر عن الضلعين الآخرين من هذا المثلث، ولا سيما ضلع خالق النص وهو المخاطِب؛ إذن يهدف الباحث إلى تجاوز النص ودراسة المخاطب أو المرسِل، ثم يتناول المخاطَب أو المرسَل إليه.

المخاطَب والمرسَل إليه النص (الخطبة والرسالة)

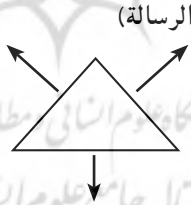

المخاطِب والمُرسِل

١-٢-٤- المخاطِب أو المُرسِل

لابد لكل باحث أن ينظر إلى أسباب إطناب النص وإيجازه من الجوانب المختلفة والزوايا الشاملة، فإذن لو أوجَزَ خطيب خطبته، أو كاتب رسالته لأسباب مختلفة واتّخذا أسلوباً إيجازياً ، فاتّخاذهما هذا الأسلوب لايمنعهما عن اتّخاذ أسلوب الإطناب والإسهاب فى موضع آخر. وفى الحقيقة هما اللذان يميّزان الإيجاز فى قولهما تارةً والإطناب تارة

أخرى. بمراجعة خطب الإمام (ع) ورسائله فى نهج البلاغة نجد التطويل والتوسط والإيجاز فيها تجرى حسب المقامات والأحوال والأماكن وفيما يلى حاول الباحث أن يأتى بجداول الخطب والرسائل المطوّلة والمتوسطة والقصيرة[1] على حدة، مع جدول آخر يشير إلى الأماكن التى ألقيت فيها هذه الخطب محلّلاً إحصائها للردّ على الشبهة المذكورة:

جدول رقم (١) لإحصاء الخطب على أساس حجمها

نوع الخطب	رقمها	جمعها	بالمائة
الطويلة	١-٨٣-٩١-١٠٩-١٦٠-١٦٥-١٧٦-١٨٢-١٨٣-١٨٥-١٨٦-١٩٢-١٩٣-١٩٨-٢١٦-٢٢١	١٦	٦/٦٤٪
المتوسطة	٢-٣-١٦-١٧-٢٣-٢٧-٣٢-٣٤-٧٢-٨٦-٨٧-٩٠-٩٣-٩٤-٩٧-٩٩-١٠٣-١٠٥-١٠٦-١٠٨-١١١-١١٣-١١٤-١١٥-١٢٢-١٢٤-١٢٥-١٢٧-١٢٨-١٣٢-١٣٣-١٤٣-١٤٧-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٦-١٧٢-١٧٣-١٧٨-١٩٠-١٩١-١٩٤-١٩٥-١٩٩-٢٠٥-٢١٠-٢١٤-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦-٢٣٠	٦١	٢٥/٣١٪
القصيرة	٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٣-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٤-٨٥-٨٨-٨٩-٩٢-٩٥-٩٦-٩٨-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٤-١٠٧-١١٠-١١٢-١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٣-١٢٦-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٨-١٤٩-١٥٨-١٥٩-١٦٢-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٤-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٦-١٩٧-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٥-٢١٧-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢٥-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-	١٦٤	٦٨/٠٥٪

١. المعيار لإحصاء الحجم: إنّ الخطب والرسائل التى تتراوح بين سطرين واثنى عشر سطراً فهى القصيرة، والتى تتراوح بين اثنى عشر سطراً وأربعين سطراً فهى متوسطة، والتى تتراوح بين أربعين سطراً وما فوق ذلك فهى الطويلة.

جدول رقم (٢) لإحصاء الرسائل على أساس حجمها

نوع الرسائل	رقمها	جمعها	بالمائة
الطويلة	٣١-٥٣	٢	٢/٥٣٪
المتوسطة	٣-٩-١٠-١٧-٢٥-٢٧-٢٨-٣٧-٤١-٤٥-٤٧-٥١-٦٢-٦٤-٦٥-٦٩-	١٦	٢٠/٢٥٪
القصيرة	١-٢-٤-٥-٦-٧-٨-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٦-٢٩-٣٠-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤٢-٤٣-٤٤-٤٦-٤٨-٤٩-٥٠-٥٢-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٣-٦٦-٦٧-٦٨-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-	٦١	٧٧/٢٢٪

١-١-٢-٤- تحليل الإحصاء

١- كما يبدو من الجداول السابقة إن الخطب والرسائل الطويلة لاتنحصر فى خطبتى القاصعة والأشباح وكتاب الإمام (ع) إلى مالك الأشتر النخعى كما ادّعى مثيرو هذه الشبهة ، بل على أساس هذا الإحصاء فإنّ نسبة الخطب والرسائل الطويلة الموجودة فى نهج البلاغة (كلها ١٨)، هى ستة أضعاف أكثر مما ادعى المشككون(كلها ٣) (نهج البلاغة، ١٩٦٨م: ٧)، يلاحظ القارئ من كلام جميع المشككين القدامى والمعاصرين أنهم يشيرون إلى خطبتين ورسالة واحدة فى هذا الصدد مما يدل على تقليد كل واحد ن سبقه، وتكرار مقولته دون الرجوع إلى نهج البلاغة الذى يتضمن ١٨ خطبة أو رسالة من هذا النوع.

٢- بالمقارنة بين كتاب الرقم (٣١) الذى كتبه الإمام (ع) لابنه الحسن (ع) وصيةً له وبين عهده (ع) لمالك الأشتر النخعى نحصل على نتائج منها:

الف- كلتا الرسالتين مطوّلتان وحجمها كثير بالنسبة إلى سائر الرسائل .

ب- رغم أنّ كلا المتلَقيين لهاتين الرسالتين من معتمدى الإمام (ع) وأعضادِه ولكنّ الإمام (ع) أطنب فى كتابته إليهما واتخذ أسلوب التطويل لهما. وهذا يدلّ على أن قرابة مخاطب الإمام (ع) ومكانته عنده لاتؤثر فى إسهابه فى الكلام (كما ادعى المشككون

الذى سيرد كلامهم فيما بعد) وعدم الإيجاز فى كتابه، بل العكس أن الإمام (ع) هو الذى يميّز ضرورة الإطناب فى كلامه على أساس استيعاب المتلقى، ولوكان من أقاربه وأعضاده أولاً، وعلى أساس الاقتضاءات والأحوال التى تكتب الرسالة بسببها ثانياً.

ج- إن للخطب الطويلة مواضيع وقواسم مشتركة يمكن اختصارها فيما يلى:

١- الخطبة (١): تحتوى على حمد الله وخلق العالم والملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبى والقرآن والأحكام الشريفة.

٢- الخطبة(٨٣): وهى تسمى بالغراء وتحتوى نعوت الله جلّ شأنه،ثم الوصية بتقواه والتنفير عن الدنيا.

٣- والخطبة (٩١): وهى تسمى بالأشباح وفيها وصف الله تعالى وصفاته فى القرآن، ووصف السماء والملائكة والأرض.

٤- والخطبة (١٠٩): وهى فى بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث وزهد النبى.

٥- والخطبة (١٦٠): وهى تحتوى على عظمة الله وحمده وتوصيف أنبيائه.

وقس على هذا سائر الخطب الطويلة، وعلى أساس ما أشيرإليه، نجد قواسم مشتركة بين هذه الخطب، وهى: توصيف الله تعالى وحمده وبيان قدرته والدعوة إلى تقواه وبيان فضائل القرآن، وأوصاف مخلوقات الله من السماء والأرض وملائكته وأنبيائه والحيوانات المثيرة للعجب التى تدل على عظمة خالقها، والحث على العمل ولزوم طاعة الله ووصف المعاد وكل هذه القواسم تختم بأصول الدين فى الإسلام وهى التوحيد والنبوة والمعاد والعدل والإمامة، فلذا نجد سبب إطناب الإمام (ع) فى كلامه هو أهمية الأصول الاعتقادية وتبيينها.

لقد خلّص كاشف الغطاء ما ورد آنفاً بقوله: إن الإطناب والإيجاز والمساواة لا يحتاج فيها إلى أن تؤثر عن النبى (ص) أو عن أحد خلفائه الراشدين، ولم يكن أحدها مرسوما فى الإسلام بحيث يجب اتباعه، بل هى تابعة لما تقتضيه المصلحة وتفرضه الحاجة وربما كانت أحوال وغايات لابد فيها من ذلک وشتان ما بين زمانه (ع) وأزمنة الخلفاء. (كاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢٧)

جدول (۳)، عن الأماکن التی ألقی الإمام (ع) بعض خطبه فیها

أماکن بعض الخطب	رقمها	جمعها
الخطب التی ألقاه الإمام (ع) بالمدینة قبل البیعة	۵-۶-۶۷-۷۴-۷۵-۹۲-۱۳۴-۱۳۵-۱۳۹-۱۴۶-۲۰۲-۲۳۵	۱۲
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) بالمدینة بعد البیعة	۷-۱۵-۱۶-۸۷-۱۰۰-۱۰۴-۱۳۰-۱۳۶-۱۵۲-۱۶۴-۱۶۷-۱۶۸-۱۶۹-۱۷۶-۱۷۸-۱۸۸-۲۰۵-۲۴۰-	۱۸
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) بالبصرة	۱۳-۱۴-۶۷-۷۳-۱۰۱-۱۰۲-۱۲۸-۱۵۳-۱۵۶-۲۰۹-	۱۰
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) بذی قار	۱۰-۱۴۷-۲۱۳-۲۱۴-۲۳۱-۲۳۹-	۶
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) بالکوفة	۳-۲۳-۲۵-۲۷-۲۸-۲۹-۳۴-۳۵-۳۶-۳۹-۴۰-۴۲-۴۳-۴۴-۴۷-۵۰-۶۵-۷۱-۷۵-۷۷-۷۹-۹۱-۹۴-۱۱۸-۱۱۹-۱۴۹-۱۸۰-۱۸۱-۱۸۲-۱۹۳-۹۳	۳۱
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) فی النهروان	۳۶-۳۷-۵۸-۵۹-۶۰-۶۱-۱۲۲-۱۲۷-۱۷۷-	۹
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) فی صفین	۲۴-۵۱-۵۵-۵۶-۵۸-۶۲-۶۶-۹۷-۱۰۷-۱۲۱-۱۲۳-۱۲۴-۱۲۵-۱۷۱-۲۰۶-۲۱۶-۲۳۳-	۱۷
الخطب التی ألقاها الإمام (ع) فی الجریبة (الجمل)	۱۱-۱۲-۲۲-۳۱-۸۰-۱۳۷-۲۱۸-۲۱۹-	۸
الخطب التی ألقاها الإمام (ع)بالنخلیة	۴۸-۲۷-	۲
الخطب التی ألقاها الإمام (ع)بالربذة	۳۳	۱

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

۲-۱-۲-۴- تحلیل الإحصاء

بالنظر إلی مضامین الخطب وأماکنها، نجد أن هذه الخطب توزّعت علی مضامین تناسب المکان الذی قیلت فیه، وهذا ما یُؤکِّد صحة نسبتها إلی الإمام (ع)، إذ یصعب علی من یقوم بالنحل أن یراعی جمیع ما یرتبط بظروف المکان، حیث أن هناک دقائق ترتبط بالتاریخ، کما أن هناک أشیاء ترتبط بجزئیات، لایمکن للمنتحل أن یعرفها فضلاً

عن أن يختلقها، وهذه خلاصة لمضامين الخطب حسب أماكنها:

١-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى المدينة قبل البيعة

يظهر فى بعض الخطب التى ألقاها الإمام (ع) فى المدينة قبل مبايعة الناس له بالخلافة، أنه تناول مواضيع عدة يرتبط جميعاً بمناسبات مختلفة، مثل خطبته عند غسل رسول الله (ص)، وعند دفن السيدة فاطمة (س) أو خطبته عند الشورى وإجابته عن استشارة عمر بن الخطاب، كما أننا نلاحظ دفاعه عن نفسه فى الاتهام الموجّه إليه بقتل الخليفة عثمان، كما نهى عن الفتنة وتحدّث عن فلسفة سكوته بعد النبى (ص) وأشياء أخرى كلها ترتبط بتلك المناسبات ولانرى فيها خطبا تتناول قضايا أخرى مما يدل على اهتمام الإمام (ع) فى هذه الفترة بالقضايا الراهنة فى الدولة الإسلامية آنذاك.

٢-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى المدينة بعد مبايعة الناس له وقبل الوقائع الثلاث

يظهر فى غالبية هذه الخطب أمرٌ قد يبدو غريباً إذ أن الإمام (ع) قلّما تحدث فيها عن المناسبات. فأكثر هذه الخطب فى وعظ الناس وذكر صفات الله وأوصاف رسول الله (ص) وخصائص القرآن ووصيته الناس بالتقوى والإسراع بالخيرات .

٣-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى البصرة وعند وقعة الجمل وفى النخلية وذى قار

نرى فى هذه الخطب أيضاً تناسباً تاماً بين المواضيع الواردة فيها وبين أمكنتها، ونراه(ع) فى البصرة يذمّ أهلها بعد وقعة الجمل كما أنه يعظ الناس ويوصيهم بالتقوى.

كذلك نجد خطبه عند وقعة الجمل، حيث يتحدث عن طلحة والزبير ويتأسف على قتلى الجمل. وفى معسكره بالنخيلة يحثّ الناس على الجهاد، ويتحدث عن قيمة الاستعداد العسكرى، وفى ذى قار نجده يقول عن تمجيد الله والدعوة إلى التقوى ووصف النبى (ص) والحديث عن البعثة، وما إلى ذلك من المواضيع.

٤-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى الكوفة

نلاحظ أن الإمام (ع) فى أكثر خطبه فى الكوفة يتحدث عن أمور مثل الخلافة والصبر على ما حصل فيها ومبايعة الناس إيّاه، كما يتحدث عن الفقراء ويشجعهم على الزهد والعفاف، ويطلب من الأغنياء الرحمة والإنصاف، وفى الخطب الأخرى نرى مضامين مثل الاستنهاض على الجهاد، ويصف فى بعضها الخوارج كما يذم أهل العراق فى البعض الآخر منها، ويوبخهم على ترك القتال.

ومن الخطب الأخرى تلك التى نجد فيها وصفاً لله وفضائل الرسول (ص) ووعظ الناس وذكر الموت ووصف المتقين ووصاياه، وهى مواضيع متعددة اقتضتها الضرورات، وهى تُطلعنا على الظروف التاريخية والأحداث التى مرّت بالإمام (ع) فى الكوفة.

٥-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى النهروان

نلاحظ فى هذه الخطب أن المواضيع لاتتجاوز ما جرى هنالک من الحرب الطاحنة بينه وبين الخوارج، حيث نراه يُخوّف أهل النهروان ويتنبّأ بما سيجرى بعد الحرب كما ينهى أصحابه عن قتل الخوارج بعده، ثم نراه فى بعض الخطب يصف نفسه فى تلک المواقف.

٦-٢-١-٢-٤- موضوع الخطب فى صفين

نلاحظ أن الإمام (ع) يدعو فى بعض الخطب إلى طاعة الله وعن الظروف الطارئة فى صفين وما قاله أثناء معركة، كما تكلم فيها عن حق الوالى وحق الرعية فى التظلّم والتشكّى.

فإذا ما رجعنا إلى هذه الخطب كلّ على حدة لوجدنا أنها تتناسب مع الظروف التى أُلقيت فيها، كما أنها تتناول جزئيات يعجز المنتحلون مهما كانت قدراتهم عن الإتيان بها مما يدلّ دلالة واضحة على صحة نسبتها إلى الإمام (ع). مما يلفت الانتباه فى هذا الصدد، وجود نماذج كثيرة من الخطب المطوّلة والرسائل المسهبة عن البلغاء فى العصرين الجاهلى والإسلامى، فبمراجعة النصوص الأدبية فى صدر الإسلام نواجه أمثال "قيس

بن خارجة بن سـنان" و"سحبان وائل" اللذين اشتهرا بالتطويل والإسهاب فى خطبهما. يقول الجاحظ: وقد رووا أن قيس بن خارجة بن سنان خطب يوما إلى الليل فما أعاد كلمـة ولا معنى. (الجاحظ، لاتا: ٥٠) وقد رووا أيضاً أن وفدا من خراسـان قدم على معاوية وفيهم سـعيد بن عثمان، فطلب سـحبان وائل[١] فأدخل عليه فقال: تكلم، فقال: انظروا: لى عصا تقوم من أودى، قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين قال: ما كان يصنع بها موسـى وهو يخاطب ربّه، فقال معاوية: هاتوا عصاى، فأتوا بهافأخذها، ثم قـام وتكلم منـذ صلاة الظهر إلى أن قامـت صلاة العصر ما تَنَحْنَحَ ولا سـعل، ولا توقف، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه وقد بقى عليه منه شيء، فما زالت تلك حاله حتى أشـار معاوية بيده، فأشار إليه: أن لا تقطع علىّ كلامى، فقال معاوية: الصلاة، قال: هى أمامـك ونحن فى صلاة وتحميد، ووعد ووعيـد، فقال معاوية: أنت أخطب العرب، فقال سـحبان: والعجم والجن والإنس (المصدر نفسه: ١٧١-١٧٢)، ومع هذا الاسترسال فى الكلام، وطـول النفس فى الخطابة نراه يوجز أحيانا حتى يجيء فى أدنى غاية من غاية الاختصار.

يقول زكى مبارك: «وسحبان وائل الذى عرف بالتطويل وإنه كان يخطب أحيانا نصف يوم، أُثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة، وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر، وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف، ورسائل على بن ابى طالـب[ع]، وخطبه، ووصاياه، وعهوده إلى ولاته تجرى على هذا النَمَط، فهو يطيل حين يكتب عهدا ليبيّن فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القُطْر الذى يرعاه، ويُوجز حين يكتب إلى بعض خواصه فى شيء معين لا يقتضى التطويل.» (مبارك، لاتا: ٥٩)

باسـتخدام الأسـلوبية المقارنة التى ورد ذكرناها سـابقاً[٢] وبمقارنة خطب القاصعة

١. هو سحبان بن زفر بن أياس الوائلى خطيب مفصح يضرب به المثل فى البيان أدرك الإسلام وأسلم ومات سنة(٥٤ق). (الحسينى الخطيب، ٢٠٠١م: ١٧٢)

٢. إنّ هذه الأسلوبية تدرس أساليب الكلام فى مستوى معين من أساليب اللغة الواحدة لتبين خصائص كل أسـلوب عن طريق مقارنة بعضها ببعض، لتقدير دوركل أسـلوب فى بناء الجمال الفنى. ولابد من حضورنصّين مختلفين أو أكثرمع اشـتراكهما فى الموضوع أو الغرض لمؤلف واحد أو لأكثر، أو دراسـة نصّـين أو أكثر لمؤلف واحد مـع اختلاف الموضوع أو الجنس الأدبى، ومقارنة الأسـاليب المختلفة فى ذلك.

والأشباح والعهد للمالک الأشـتر النخعی باعتبار حجمها وتطویلها[1] وما خطب قیس بن خارجة بن سنان یوماً إلی اللیل، أو ما تکلّم سحبان وائل عند معاویة بن أبی سفیان منذ صلاة الظهر إلی صلاة العصر یَثْبت لنا أولاً: أنّ التطویل فی بعض کلام الإمام (ع) لم یکن شیئاً لم یؤلف فی زمانه، بل کان الإسهاب معروفاً عند البلغاء فی الجاهلیة والإسلام، وثانیاً: إطناب الکلام فی أسـلوب خطیب أو کاتب لا یُجبره فی بقائه فی هذا الأسـلوب ولایحصـره فیه، بل بإمکانه أن یوجز فی موضع آخر، ولدیه الحریّة فی اختیار ما تقتضیه الحال حیث یمکنه أن یسهب فی موضع أو یوجز فی موضع آخر.

نظراً لأن المشککین یرکزون فی تشکیکهم علی عهد الإمام (ع) لمالک الأشتر النخعی أکثـر من غیره، فالأحری ذکر ما طرحه زکی صفوت باشـا مـن مآخذ علی هذا العهد وإطناب الإمام (ع) فی نقاط هی: ۱- إن الخلفاء قبله عهدوا إلی ولاتهم فلم یؤثر عنهم ذلک الإسهاب فی عهودهم. ۲- إن الإمام[ع] نفسه ولّی محمد بن أبی بکر الصدیق علی مصر قبل الأشـتر النخعی، وولّی قیس بن سعد بن عبادة علیها قبل ابن أبی بکر، وولّی غـیر هؤلاء علی الأمصار فلم یعهـد إلیهم بمثل هذا العهد، بـل إنّ عهده لابن أبی بکر عشـرة أسـطر. ۳- إن مالک بن الحارث الأشـتر الذی کُتِب له ذلک العهد، کان عضد الإمام [ع] وساعده فی صفّین، وقد قدّمنا أنه کان قائد المیمنة، وقد أُبلی فی الحرب بلاء حسـنا، وکان یسـتحثّ من همّة الجیش کلما آنس منهم مللا وسآمة. وفحوی ذلک أنه کان موضـع ثقة تامة من الإمام[ع]، ومن کان کذلک فلیس بحاجة إلی ذلک القدر من الإسـهاب فی الحیطة والحذر وتأکید المواثیق، وکیف یسـهب هذا الإسهاب فیکتب له عهدا فی مائتین وخمسة وسبعین سطراً. (زکی صفوت، ۱۹۳۲م: ۲۲۹-۲۳۱) قبل أن نرد علی ما ادعاه زکی صفوت، فجدیر بالذکر أن نشیر إلی أن «شکوکه فی ترجمته لعلی بن أبی طالـب (ع) حیث قال: فی نهج البلاغة جمع الشـریف الرضی ما أثر عن الإمام من خطب ورسائل وحکم ومواعظ ضمّتها کتاباً واحداً سمّاه نهج البلاغة انتهی من تألیفه فی

۱. تحـدث العلامة الشهرسـتانی عن طبیعة التطویل فی الخطب المذکـورة بمقارنتها بالنصوص والآثار الباقیة فی العهد الجاهلی والإسـلام قائلاً: إنّها لیسـت بأعجب من روایة المعلّقات السـبع والقصائد الأخری من الأوائل،ومن الخطب والمأثورات الضافیة التی رُویت عن النبی المصطفی(ص) وعن غیره ممن تقدم علیه زمانه أو تأخر. (الشهرستانی، ۱۳۵۲ق: ۵۲)

رجب سنة ٤٠٠ق، وقد ترک أوراقاً بيضاء فی آخر کلّ باب رجاء أن يقف علی شیء بعد الجمع فيدرجه فی المحل اللائق به.» (الأسدی، ٢٠٠٧م: ٥٥) لعل القارئ المتعمق فی آراء صفوت، عندما يواجه هذه السطور من شکوکه فی النهج خاصة "ترک أوراقاً بيضاء"، فبادئ ذی بدء، يدرک أن آراء صفوت فی تقييم النهج أو التعريف به، قد يتجلی فيها الشک والريبة، أو عدم المصداقية ولا تنبنی علی خطوات استدلالية صريحة، بل إنه يصدر حکماً شفوياً دون تتبع طريقة الاستدلال، لکن الباحث يتجاوز عن هذه النقطة، لکی يردّ علی آرائه بأدلة وبراهين منطقية، کما يلی:

ففی الإجابة عن المؤاخذة الأولی: فقد عولجت فيما مضی فخلاصته أن الإطناب والإيجاز والمساواة کلها تابعة لما تقضيه الحال والمصلحة وما تفرضه الحاجة، والذی يميّز أين يُطنب تارة ومتی يوجز تارة أخری هو صاحب الکلام والمخاطِب الذی يعرف الظروف والاقتضاءات، کما أن ما يشابه «هذا القدر من الطول فی الخطب ليس غير مقبول عقلياً، بل إن المعروف فی ذلک العهد والمتداول بين أيدينا فی خطب النبی وخطب أبی بکر وعمر وعثمان ومعاوية لا يبلغ هذا الحد ولا نصفه، وهذه خطبة النبی فی حجة الوداع، وهی تحوی ضروباً کثيرة من التشريع لا تزيد علی اثنين وثلاثين سطراً، وأن اعتقادنا أن علياً انفرد بأنه أخطب الخطباء بعد الرسول لا يحملنا لی التسليم بأنه انفرد بطول الخطب دونهم.» (الأسدی، ٢٠٠٧م: ٥٨) ومن زاوية أخری، فکان عهد الإمام علی (ع) عهد أزمات وحروب وقلاقل، ولذا کان يتوجب علی الإمام أن يطيل فی أمد الخطبة ليجيب علی استفهامات الناس ويردّ علس شبهات أصحاب التيارات السياسية والأفکار المناوئة وکان ينبغی عليه (ع) أن يحصن الأمة من مظاهر الانحراف والتراجع. (المصدر نفسه: ١١٦)

و رداً علی المؤاخذة الثانية: فلاشک بأن هناک اختلافين بارزين فی الموضوع: **الأول** هو أنّ کل متلقٍّ يختلف عن الآخر، کما أنّ هناک فرقاً بين محمد بن أبی بکر وقيس بن سعد وبين محمد بن أبی بکر ومالک الأشتر النخعی، **والثانی** هو ما يخصّ اختلاف الظروف، فإذا تصفحْنا التاريخ يبدو لنا أن الظروف التی کان يحکم فيها محمد بن أبی بکر ويتولی الأمور فی مصر کانت تختلف تماماً عن الظروف والأوضاع التی شهدتها مصر

حينما ولّى الإمام (ع) مالک الأشــتر النخعى عليهــا (تلک الظروف التى لايحاول هذا البحث الخوض فى تفاصيلها خشــية التطويل)، فإذن لاشــک أن لكل ظرف اقتضاءاته الخاصة به.

وللإجابــة عن المؤاخذة الثالثة: فهى أن مالكاً كان موضع ثقة من أمير المؤمنين (ع)، فلا يحتاج إلى التوصية وإلى الإسهاب فى الحيطة وأن محمد بن أبى بكر أولى بهذا العهد من الأشتر النخعى، فقسم من الجواب مرّ آنفاً، وهو يعود إلى استيعاب المتلقى[1]، وقسمٌ آخر هو أن الحال اقتضت أن يكتب له الإمام (ع) هذا العهد ليقرأه على الناس فيعلموا ما لأمير المؤمنين من الحكمة واليقظة والعناية بأمور الرعية وغير ذلک. (كاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢٨)

٢-٢-٤-من زاوية المخاطب أو المرسل إليه

إضافة إلى ما ســبق، فإننا من خلال إمعان النظر فى مضامين العهد نُدرک أن كتاب الإمام (ع) موجهٌ إلى نوعين من المخاطبين هما:

١- المخاطب الخاص وهو مالک الأشتر النخعى.

٢- المخاطب العام وهو يشــمل الناس الذين عاشوا فى مصر آنذاک والذين يأتون بعدهم ويريدون أن يتعرفوا على حقوقهم وحدودهم وواجبات الولاة تجاه الرعية والتى حدّدها الإمام(ع) للولاة.

إنّنــا نجد مثل ذلک فى كثير مــن الآيات القرآنية حيث ينقســم المخاطب فيها إلى قســمين، فمثلاً نرى أن لقمان حينما يخاطب ابنه ويعظــه فى الآية الكريمة: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَکَ إِنَّ ذَلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًــا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان/١٧-١٨)

فالمخاطب الخاص هو ولد لقمان الذى وعظه أبوه، والمخاطب العام هو كل مســلم أنــزل الله هــذه الآيات لهدايته ولكــى يُقيم الصلاة ويأمر بالمعــروف وينهى عن المنكر

١. راجع التحليل الإحصائي للجداول (١) و(٢)الســابقة: المقارنة بين كتاب الرقم (٣١) وعهد الإمام (ع) لمالك الأشتر النخعي.

ويصبر على ما أصابه، وعلى هذا الأساس فعهد الإمام (ع) لمالك الأشتر لايختص بزمان خاص، بل هو دُستور شامل أصدره الإمام (ع) لكل من يريد أن يتعرف على حقوق الرعية على الوالى وحقوق الوالى على الرعية فى الإسلام، وهو يمثل القدوة والمثل الأعلى للقيم الاجتماعية والسياسية فى الإسلام حسب رؤية الإمام (ع)، وفى الحقيقة فإن الإمام (ع) رسم لكل والٍ واجبه تجاه الناس من الجوانب المختلفة السياسية والاجتماعية والعمرانية ونحوها.

كما يأمر (ع) مالك الأشتر فى بداية عهده له بأربع وظائف رئيسة إذ يقول:

«هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ- مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ- حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا وجِهَادَ عَدُوِّهَا- واسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وعِمَارَةَ بِلَادِهَا.» (نهج البلاغة: الكتاب ٥٣) .ويخاطبه قائلاً: «ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ- أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ- مِنْ عَدْلٍ وجَوْرٍ- وأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ- فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ - ويَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ- وإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ- بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ- فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ- فَامْلِكْ هَوَاكَ وشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ- فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ- والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ.»

فإذن الأوامر الواردة فى النصوص السابقة لتهذيب النفس مثل عبارة: «فَامْلِكْ هَوَاكَ وشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ» أو طريقة مواجهته الرعية فى الرحمة والمحبة واللطف كقوله: «أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ- والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ» ليست تختص مالكاً فحسب، بل هى الأوامر والنواهى لكل من يتولى الحكم والمسؤولية فى الإسلام.

للإجابة عن موضوع تعذر الحفظ والضبط فى أمثال عهد مالك وتعذر وجود وسائل الكتابة وإعواز القرطاس، فيمكن القول إن العناية بالحفظ والكتابة كانت فى زمن الراشدين أهم وأعظم من قبله، ونعتوا ابن عباس بأنّه كان يحفظ القصائد الطوال لأول مرة من سماعها، وكان مثلُه فى عامة العرب، (الشهرستانى، ١٣٥٢ق: ٣٢) والاهتمام بحفظ خطب الإمام(ع) كان أكثر، كما أكّد على ذلك الأمر المسعودى فى كتابه. (المسعودى،

لاتا: ٤٥٩)

من جانب آخر فإنّ إعواز القرطاس کان فی مبدأ الإسلام قبل أن ینتشر فی الآفاق وتکثر فتوحاته وتتسع بلاده، وأما فی زمن ظهور خلافة أمیر المؤمنین (ع) فلم یکن الأمر کذلک، فإن المسلمین قد فتحوا بلاداً کثیرة وملکوا دول الأکاسرة والقیاصرة فلم یکن یعوزهم ذلک. قال ابن أبی الحدید: وکانت الکوفة یومئذ تجبی لها ثمرات کل شیء وتأتی إلیها هدایا الملوک من الآفاق (ابن أبی الحدید، ١٩٦٧م: ٢٨٤) علی أنه قد وُجد من الکتب السماویة والصحف الدینیة ما هو أطول من هذا العهد (کاشف الغطاء، ١٩٥٤م: ٢٢١(، وهذا کله دلیل علی أن القرطاس وعدم توفیره لم یکن یمنع من إلقاء مثل هذه الخطب، وإن شکوک المشککین ومآخذهم غیر واردة علی الإطلاق.

النتائج

من خلال ما تقدم نصل إلی نتائج، فیما یلی:

١- تقول شبهة الإسهاب والإطناب فی نهج البلاغة عن أن الکلام الوارد فیه کثیر لم تکن حیاة الإمام (ع) تتسع لأن یقوله ولم تکن ظروفه السیاسیة والدینیة تُمکّنه من النطق بهذا القول، ولم یبلغ کلام الخلفاء الثلاثة الذین سبقوه مجتمعاً نصفَ کلام الإمام(ع)، ففی الردّ علیه، لم یکن الإطناب والتطویل والإسهاب فی خطب نهج البلاغة، اعتباطیاً وبدن غرض وجدوی، بل اتضح هذا من خلال الأثر الذی یترکه علی المتلقی والمخاطب، کما أن ترْکه یضیّع علی المتلقی فائدة ثمینة.

٢- وجود نماذج کثیرة من الخطب المطوّلة والرسائل المسهبة عن البلغاء فی العصرین الجاهلی والإسلامی یدل علی أنّ التطویل فی بعض کلام الإمام (ع) لم یکن شیئاً لم یؤلف فی زمانه، بل کان الإسهاب معروفاً عند البلغاء فی الجاهلیة والإسلام.

٣- بمراجعة خطب الإمام (ع) ورسائله فی نهج البلاغة نجد التطویل والتوسط والإیجاز فیها تجری حسب المقامات والأحوال والأماکن، کما لاحظنا موضوع الخطب فی المدینة قبل البیعة وبعدها یختلف عما شابهه فی الکوفة وصفین والنهروان وغیرها من الأمکنة، کما أنّ کل متلقٍّ یختلف عن الآخر، والإمام (ع) هو الذی یمیّز ضرورة الإطناب

فی کلامه علی أساس استیعاب المتلقی، ولو کان من أقاربه وأعضاده أولاً، وعلی أساس الاقتضاءات والأحوال التی تکتب الرسالة بسببها ثانیاً، وفیما یخص الأخذ علی عهد مالک الأشتر، فلا شک أن هذا العهد صورة کاملة عن سلامة نفس الإمام وبعده عن أدران الرئاسة وقذارة الدنیا وتحذیر لمن ولّاه مصر وهو مالک، لکن الإطناب فیهما یتجذز فی أن هذا العهد یخاطب المتلقی العام الذی یأتی بعد مالک ویلزم علیه أن یمشی فی سواء السبیل، فشبهة الإطناب فیه غیر وارد، ولا مبّرر لقبوله.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

إبراهیم السید، صبری. ١٩٨٦م. نهج‌البلاغة. تقدیم العلامة عبدالسلام محمد هارون. الدوحة: دار الثقافة.

ابن أبی الحدید. ١٩٦٧م. شرح نهج البلاغة. بتحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. الطبعة الثانیة. بیروت: دار إحیاء التراث العربی.

ابن خلکان، شمس الدین أبوالعباس أحمد بن محمد. لاتا. وفیات الأعیان وأنباء أبناء الزمان. تحقیق إحسان عباس. بیروت: دار الثقافة.

ابن منظور. لسان العرب. ١٩٨٨م. ابن منظور. لسان العرب. بیروت: دار إحیاء التراث العربی.

إسبر، محمدعلی. ١٣٦٢ش. نهج البلاغة نبراس السیاسة منهل التربیة. مقال تحت عنوان. نهج‌البلاغة بعد ألف عام. قم: بنیاد نهج البلاغة.

الأسدی، عادل حسن. ٢٠٠٧م. مع المشککین فی نهج البلاغة. قم: مکتبة العزیزی.

الأمین، أحمد. ١٩٦٩م. فجر الإسلام. الطبعة العاشرة. بیروت: دار الکتاب العربی.

باشا، عمر موسی. ١٩٩٣م. نهج البلاغة فی مرآة القرآن. ضمن کتاب نهج البلاغة والفکر الإنسانی المعاصر. سوریا: المستشاریة الثقافیة للجمهوریة الإسلامیة الإیرانیة بدمشق.

بروکلمان، کارل. لاتا. تاریخ الأدب العربی. نقله إلی العربیة عبد الحلیم النجار. الطبعة الثانیة. ج٢. قم: أفست دار الکتاب الإسلامی.

بلبع، عبدالحکیم. ١٩٥٤م. النثر الفنی وأثر الجاحظ فیه. القاهرة: الأنجلو المصریة.

التستری، محمدتقی. ١٤١٨ق. نهج الصباغة فی شرح نهج البلاغة. ج٥. الطبعة الأولی. طهران: دار أمیر کبیر للنشر.

الجاحظ. لاتا. البیان والتبیین. تحقیق علی أبوملجم. الطبعة الأولی. بیروت: دار ومکتبة الهلال.

جعفری، سید محمد مهدی. ١٣٥٦ش. پژوهشی دراسناد ومدارک نهج البلاغة. طهران: انتشارات قلم.

جمعة العاملی، حسین. ۱٤۰۳ق. شروح نهج البلاغة. الطبعة الأولی. بیروت: مطبعة الفکر.
الجلالی الحسینی، محمد حسین. ۲۰۰۱م. دراسة حول نهج البلاغة. ط۱. بیروت: شرکة الأعلمی للمطبوعات.
الحسینی الخطیب، السید عبدالزهراء. ۱٤۰٥ق. مصادر نهج البلاغة وأسانیده. بیروت: دار الأضواء.
الحنبلی، أبوالفلاح عبد الحی ابن العماد. لاتا. شذرات الذهب فی أخبار من ذهب. ج۳. بیروت: دار إحیاء التراث العربی.
الحوفی، محمد أحمد. ۱۹۷۷م. بلاغة الإمام علی. مصر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
الذهبی، شمس الدین أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان. لاتا. میزان الاعتدال فی نقد الرجال. تحقیق علی محمد البجاوی. بیروت: دار الفکر.
الرمانی، أبوالحسن. لاتا. النکت فی إعجاز القرآن. ضمن کتاب ثلاث رسائل فی إعجاز القرآن للرمانی والخطّابی وعبدالقاهر الجرجانی. حققها وعلّق علیها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام. الطبعة الثالثة. مصر: دار المعارف.
الزرکلی، خیرالدین. ۱۹۸۹م. الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربین والمستشرقین. ج۳. الطبعة الثامنة. بیروت: دار العلم للملایین.
زکی صفوت، أحمد. ۱۹۳۲م. ترجمة علی بن أبی طالب. لامک: مطبعة العلوم.
زیدان، جرجی. ۱۹۱٤م. تاریخ آداب اللغة العربیة. راجعه وعلّق علیه شوقی ضیف. ج۲. القاهرة: دار الهلال.
الشامی، حسین برکة. ۲۰۰۸م. البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقیادة المجتمع فی عهد الإمام "ع" لمالک الأشتر. الطبعة الثانیة. بغداد: دار الإسلام.
الشایب، أحمد. ۱۹٤٥م. الأسلوب دراسة بلاغیة تحلیلة لأصول الأسالیب الأدبیة. مصر: مکتبة النهضة المصریة.
الشریفی، عبدالهادی. ۲۰۰٥م. نهج البلاغة، جمعه، مصادره، مناقشة التشکیک فی نسبته إلی إمام علی. فصلیة المنهاج. ع ۳٦.
الشهرستانی، هبة الله. ۱۳٥۲ق. ما هو نهج البلاغة. صیدا: مطبعة العرفان.
الصفدی، صلاح الدین خلیل بن ایبک. ۱٤۰۱ق. الوافی بالوفیات. ج۲۱. لامک: دار النشر فرانزشتاینر.
ضیف، شوقی. لاتا. الفن ومذاهبه فی النثر العربی. الطبعة الثامنة. القاهرة: دار المعارف.
طعمة، هادی سلمان. ۱۹۷۷م. تأثیر نهج البلاغة فی الأدب العربی. مجلة العرفان. ع ٦٥۷.
عباس، إحسان. ۱۹٥۹م. الشریف الرضی، دراسة. بیروت: دار صادر.
عبده، محمد. لاتا. شرح نهج البلاغة. تحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید. القاهرة: مطبعة الاستقامة.

العسقلانی، شهاب الدين أحمد بن على ابن حجر. لاتا. لسان الميزان. ج٤. الطبعة الأولى. بيروت: دارالفكر.
الغفارى. عبدالرسول. ١٤٢٨ق. دعوات وشبهات أثارها البعض حول نهج البلاغة. مجلة تراثنا .ع ٣-٤.
فضل، صلاح. ١٩٩٨م. علم الأسلوب مبادئه وإجراته. الطبعة الأولى. القاهرة: دار الشروق.
كاشف الغطاء، الهادى. ١٩٥٤م. مستدرک نهج البلاغة، ومدارک نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه – كتابان فى مجموع واحد. تأليف وجمع الهادى كاشف الغطاء. بيروت: مطبعة مكتبة الأندلس للطباعة والنشر.
مبارک، أحمد زكى. لاتا. النثر الفنى فى القر الرابع. جزءآن. الطبعة الثانية. مصر: مطبعة السعادة.
المبرد، محمدبن يزيد. لاتا. الكامل فى اللغة والأدب.بيروت: مكتبة المعارف.
المسعودى، أبوالحسن على بن الحسين. لاتا. مروج الذهب ومعادن الجواهر. بيروت: دار الأندلس.
الهاشمى، أحمد. ١٣٧٩ش. جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع. قم: نشر إلهام.
اليافعى، أبو محمد عبد الله بن أسعد. ١٣٣٩ق. مرآة الجنان وعبرة اليقضان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. الطبعة الأولى. حيدرآباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی